

فن المقامة في الأدب الجزائري الحديث

The art of maqamah in modern Algerian literature

د. محمد نمرة*

جامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة، (الجزائر)، m.nemra@univ-dbkm.dz

تاريخ الإرسال 31-07-2022 تاريخ القبول 22/08/2022 تاريخ النشر 23/09/2022

ملخص:

يطرح المقال موضوع فن المقامة في الأدب الجزائري الحديث، إذ نتعرف من خلاله على بداياته من خلال الآثار الأدبية القديمة في المنطقة العربية، ومن ثم نتعرف على نشأته وأعلامه في الجزائر، ونفصل في اتجاهاته التي اختلفت باختلاف منطلقات الكتاب الفكرية، ومذاهبهم وثقافتهم المختلفة، دون أن نغفل أهم الموضوعات التي طرحوها في مقاماتهم، والتي استلهمت من عمق حياة الشعب الجزائري خلال مرحلة الاحتلال الفرنسي، وانتهاء بعرض مختلف الخصائص الفنية التي اتسم بها هذا الفن.

الكلمات المفتاحية: المقامة، الأدب الجزائري الحديث، الاتجاهات، الموضوعات، الخصائص الفنية.

Abstract:

The article presents the subject of the art of maqama in modern Algerian literature, as we learn about its beginnings through ancient literary monuments in the Arab region, and then learn about its origins and flags in Algeria, and we detail in its directions, which differed according to the writers' intellectual premises, their different sects and cultures, without We overlook the most important topics that they presented in their shrines, which were inspired by the depth of the life of the Algerian people during the period of the French occupation, and ended with the presentation of the various artistic characteristics that characterized this art.

Keywords: Maqamah; modern Algerian literature; trends; themes; artistic characteristics.

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

تراوحت فنون النثر الأدبي الجزائري الحديث بين قديمة (كالخطابة، والرحلة، والرسالة، والمقامة)، وجديدة (كالرواية، والقصة، والمقال). والمقامة فنّ عربيّ قديم، تعود بداياته إلى العصر العباسي، له مبادئه وأسسها التي تجعله فناً قائماً بذاته، وهو يختلف عن باقي الفنون النثرية الأخرى، وقد اختلفت اتجاهاته وموضوعاته من عصر لآخر، ومن بيئة لأخرى، وكذلك هو الحال بالنسبة لهذا الفن في الجزائر، فما الذي ميّزه شكلاً ومضموناً وأضفى عليه طابع الأدب الجزائري الحديث؟ ومن هم أهم الكتاب الذين نهضوا به خلال العصر الحديث؟

2. تعريف المقامة:

1.2. لغة:

ورد في لسان العرب أنّ المقامة تعني: "المجلس والجماعة من الناس"¹، وقد استعملت بهذا المعنى منذ العصر الجاهلي، فكانت تعني مجلس القبيلة أو ناديتها، أمّا في العصر الإسلامي فقد ارتبط مفهومها بمجالس الوعظ، وتطور بعد ذلك مفهومها اللغوي شيئاً فشيئاً، وأصبح يقترب من مدلولها الاصطلاحي، يقول عباس هاني الجراح: "تطور الأمر ليشمل ما يقع في تلك المجالس من طريف المحاورات بين الجالسين، وذلك في القرن الثالث هجري، وفي القرن التالي أصبح للكلمة مدلول جديد وهو الدعوة التي يوجهها المعتقون وأهل الكدية إلى الناس ممن يتوسمون فيهم البر والإحسان"². ولا شك أن هذا هو الطابع العام والغالب على فن المقامة بمعناه الاصطلاحي.

2.2. اصطلاحاً:

المقامة فن أدبي نشري قديم ظهر على يد علي بن أبي الفضل أحمد بن الحسين المعروف ببديع الزمان الهمداني (358هـ-398هـ)/(969م-1008م)، ولا شك أن هذا الفن عربي الأصل والنشأة وليس فارسي كما قال البعض ظهر خلال القرن الرابع هجري (العصر العباسي). عرّف الهمداني المقامة بأنها الحديث الذي يُلقى في الجماعة، قبل أن تستقر فناً من فنون الأدب، جاء النقاد بعد انتشار هذا النوع الأدبي وفرض نفسه كأسلوب مختلف في الكتابة وصاغوا للمقامة تعريفات اعتمدوا فيها على ذكر خصائصها وأركانها ومنهم شوقي ضيف الذي يرى أنّها حديث يصوغه الهمداني "في شكل قصص قصيرة يتأنق في ألفاظها وأساليبها، ويتخذ لقصصه جميعاً راوياً واحداً هو عيسى بن هشام، كما يتخذ لها بطلاً واحداً هو أبو الفتح الأسكندري، الذي يظهر في شكل أديب شحاذ"³. ويعرفها يوسف نور عوض بأنها: "قصة قصيرة بطلها نموذج إنساني ومكد ومتسول لها راو وبطل وتقوم على حدث طريف مغزاه مفارقة أدبية أو مسألة دينية، أو مغامرة مضحكة تحمل في داخلها لونا من ألوان النقد أو الثورة أو السخرية، وُضعت في إطار من الصنعة اللفظية والبلاغة"⁴.

و تعزى بداية هذا الفن إلى مجموعة من الآثار الأدبية القديمة، وهي كالآتي:

أ- أحاديث ابن دريد: هي في مجموعها أربعون حديثاً موجودة في كتاب الأمازي، لأبي علي القالي، ألهمت الهمذاني كتابة مقاماته الـ 400 في الكدية⁵.

ب- كتابات الجاحظ: تأثر الهمذاني بما كتبه الجاحظ وضمّنه حكايات، وقصص ونوادر عن المكدين والبخلاء واللصوص... إذ يبدو واضحاً أن البديع استلهم منه الموضوع المتعلق بأهل الكدية⁶.

ج- الشعر الساساني: تأثر بديع الزمان باثنين من شعراء الكدية الساسانيين هما: الأحنف العُكْبَرِي، وأبو ذلف الخزرجي، وقد ذكر شوقي ضيف أبياتاً لهما وُجدت في بعض مقاماته كالمقامة الساسانية مثلاً⁷.

د- مقامات الوعاظ والقصاص وأحاديث الأعراب وخطبهم: نجدها مبثوثة في كتب الأدب نحو: عيون الأخبار والعقد الفريد، تشبه المقامات في أسلوبها ولغتها المسجوعة، أما موضوعاتها فهي لم تكن خالصة للوعظ فقط، بل تناولت بعضاً من القضايا الاجتماعية كضيق سُبل العيش، وشكوى الفقر مما تشترك فيه مع المقامة⁸.

هـ- حكاية أبي القاسم البغدادي لأبي المطهر الأزدي: هناك تشابه كبير بين شخصية أبي القاسم وأبي الفتح راوية البديع، وذلك في فصاحة اللسان، وبلاغة القول والقدرة البيانية ومظاهر الخداع⁹.

3. نشأة فن المقامة في الجزائر:

عرف الأدب الجزائري الحديث فن المقامة بنفس الصورة التي ظهر بها في الأدب العربي القديم والحديث، سواء من حيث اللغة والأسلوب أو المضامين والهدف، طبعاً مع بعض الاختلافات التي يفرضها اختلاف الزمن والبيئة والظروف، وكذا وضع اللغة العربية. اعتبر هذا الجنس الأدبي النثري وسيلة غير مباشرة لنقد المجتمع والأفراد بطريقة فكاهية ساخرة، خاصة في ظل سيطرة الاحتلال الفرنسي والتي عاش الشعب إثرها أسوأ ظروف، عبرت عنها العديد من المقامات رافضة مستنكرة، داعية إلى النهوض أحياناً.

نشأ هذا الفن في الجزائر على يد محمد بن محرز الوهراني، الذي يُعد أول من أبدع في كتابة المقامة، عاش بين مصر ودمشق في القرن السادس هجري، له مجموعة من المقامات ضمن كتاب (منامات الوهراني ومقاماته ورسائله)، قدّم الدكتور عبد العزيز الأهواني لعمله هذا بقوله: "إن هذه المجموعة من النصوص تمتاز في تاريخ النشر الفني في الأدب العربي بمميزات ترفعها إلى مقام عال، ولا نكاد نجد في النشر العربي القديم نصوصاً فيها ما في كتابات الوهراني من حيوية وذكاء، ولحات تعبر عن شخصية الكاتب"¹⁰.

4. أعلام فن المقامة في الجزائر خلال العصر الحديث:

1.4. الأمير عبد القادر الجزائري، تخصص في المقامة الصوفية، وله فيها كتاب (المواقف).

2.4. عمر بن ابراهيمات من الذين ارتبطوا بالتعليم في المدارس الرسمية التابعة للإدارة الفرنسية، وكان يحسن الفرنسية، إلى جانب العربية وله كتابات نثرية، ومقامة بعنوان (مقامة أدبية)، يعود تاريخها إلى 1903، غير أن الركيبي يرى أنها شبه مقامة¹¹، ونعتقد أنها أقرب إلى الرحلة لأنه يتحدث فيها عن رحلته التي قام بها إلى باريس سنة 1897 بهدف المشاركة في مؤتمر علمي.

3.4. محمد الصالح خبشاش (1904-1941): ولد ونشأ بقسنطينة، أين تعلم اللغة العربية، ثم ارتبط بالحركة الإصلاحية وبقائدها، هو شاعر ونثر في الوقت نفسه، له مجموعة مقامات بعنوان (زفرات القلوب)¹².

4.4. محمد بن علي: هو محمد بن علي الطاهر الجباري من غرب الجزائر، عمل قاضيا، له مجموعة مقامات بعنوان (المقامات العوالية في أخبار العلالية على اللغة العربية)، ترجمت إلى الفرنسية سنة 1913 ونُشرت في الجريدة الآسيوية، وكان قد كتبها في سبعينات القرن 18، بلغة متفصحة¹³.

5. اتجاهات المقامة في الجزائر:

فرضت الحياة في الجزائر خلال الفترة الحديثة، وكذا الوضع السياسي والاجتماعي آنذاك، اتجاهات معينة لكتاب المقامة، تتناسب مع ظروف الفكر والثقافة واللغة والمجتمع عامة إبان الاحتلال الفرنسي، يمكن تحديدها في أربعة اتجاهات هي: الاتجاه الصوفي، الاتجاه الأدبي، الاتجاه الإصلاحي، الاتجاه الشعبي.

1.5. الاتجاه الصوفي:

هو الاتجاه الذي يهتم فيه كاتب المقامة بالموضوعات الروحية، وكل ما يتعلق بالكون والوجود والخلق والخالق، مثال ذلك ما كتبه الأمير عبد القادر في كتاب المواقف الذي تحدث فيه عن الحقيقة الإلهية، إذ يقوم البطل برحلة لاكتشاف هذا المجهول فيتوصل في نهاية الأمر إلى أن تلك الحقيقة تُدرك بالذوق والمشاهدة والتجربة، وكما أنها لا تُروى ولا تُحكى ولا تُدرك بالأدلة العقلية. راوي المقامة هو (عريف الجماعة ومقدم أهل البراعة) كما يعبر عنه أو يصفه الكاتب، فهو لم يسمّه باسم عادي، بل أشار إليه بتلك العبارة ليخرج بذلك عن المجهود في فن المقامة منذ القدم، إذ كان كل مقامي يعتمد رواية يتكرر اسمه في جميع مقاماته نحو عيسى ابن هشام رواية الهمذاني والحارث بن همام رواية الحريري، وسطيح رواية حافظ إبراهيم... وقد أسقط البعض هذه الشخصية من مقاماتهم نحو الزمخشري والسيوطي¹⁴. ما يعرف عن الراوي في المقامة أنه شخصية خيالية، يبتكرها الكاتب ليسند إليها الكلام في عمله، أما البطل فغالبا ما يكون هو الآخر خياليا لكن قد يكون حقيقة، وهذا ما نجده في كتاب المواقف، لأنه هو الكاتب نفسه، يقول عبد الله ركيبي: "والبطل هنا ليس من اصطناع المؤلف، شأن كتاب

المقامات في ابتكار شخصيات معينة، وإنما البطل هو المؤلف الذي يقوم بمغامرة روحية فريدة يصعب على غيره القيام بها لتحقيق غاية يقصر عن تحقيقها الآخرون¹⁵، وهو ينحو في هذا نحو الزمخشري، الذي يمكن القول إن البطل أبو القاسم هو المؤلف، باعتباره يبدأ كلامه بمخاطبة نفسه "يا أبا القاسم" رغم أن البعض يرى أنه أسقط البطل كما أسقط الراوي من مقاماته¹⁶.

2.5. الاتجاه الأدبي:

ينصرف المقامي في هذا الاتجاه إلى الأدب ولغته وفنونه، فيستلهم منه موضوعات مقاماته، يهتم بالكتاب ومختلف أعمالهم، وبمختلف قضايا الأدب ونقده، شعرا كان أو نثرا. عُرف هذا الاتجاه عند العرب منذ بدايات فن المقامة، نذكر على سبيل المثال: المقامة الشعرية، وكذا المقامة الجاحظية والقريضية للهمذاني، المقامة العروضية، المقامة النحوية للزمخشري. أما القريضية فقد عرض فيها الهمذاني خصائص الشعراء المشهورين (طرفة، النابغة، الفرزدق...)، ووازن بين القدماء والمحدثين، أما الجاحظية فقد حاول من خلالها التعريض بالجاحظ وكتاباته وأسلوبه¹⁷. أما من الأدب الجزائري فنذكر في هذا الاتجاه ما كتبه (بن ابريهمات) في عمله (مقامة أدبية)، فإنها: "تعالج موضوع الصراع بين بعض المستشرقين وعلماء المسلمين، فيما يتعلق بالثقافة والفكر والأدب والتراث العربي الإسلامي"¹⁸.

شهدت المقامة الأدبية النقدية تطورا بعد النهضة الأدبية التي عرفها الأدب الجزائري، والمتزامنة مع الحركة الإصلاحية خاصة بعد تأثر الأدباء بتيارات الأدب الحديثة الوافدة من المشرق، وقد أدى ذلك إلى إحياء اللغة العربية، وجعلها أداة للتعبير عن الواقع والوجدان وتخلصها من الزخرف والتكلف والصنعة اللفظية، التي كانت تعتبر هدفاً عند كتاب المقامة القدماء¹⁹.

3.5. الاتجاه الإصلاحي:

هو الاتجاه الذي استقطبت أعلام رجال الفكر الإصلاحي في الجزائر الذين كان هدفهم إصلاح المجتمع الجزائري من كل الآفات وعلى جميع الأصعدة، خاصة دينيا وثقافيا، لذا سخرُوا أدهم لخدمة هذا الهدف فاستم أعمالهم الإبداعية شعرا ونثرا، بطابع وعظي إرشادي وتربوي، ومنها المقامة التي سُخرت لتمثيل مبادئ الفكر الإصلاحي التي انتشرت في الجزائر خلال عشرينيات القرن العشرين، غاص هذا النوع الأدبي في أعماق المجتمع، وعبر عن مختلف القضايا الاجتماعية والثقافية والأخلاقية والدينية... التي تتعلق به.

يندرج ضمن هذا الاتجاه مقامات (محمد الصالح خبشاش) المعنونة بـ (زفرات القلوب)، وهي كما يقول عبد الله ركيبي: "تستمد شكلها من القديم، ولكنها تُطوّر ليعبر عن الواقع الجديد في البيئة الجزائرية في الفترة المشار إليها خاصة في مضامينها"²⁰ ذلك الواقع الذي عبّرت عنه معظم مقامات هذه الفترة التي تنتمي إلى هذا الاتجاه وإلى غيره من الاتجاهات الأخرى، إذ راع الكاتب ما عاناه الشعب الجزائري، وهالهم ذلك الجمود الفكري وخمول الوعي، ومحاولة المستعمر طمس الشخصية العربية المسلمة بكل معالمها وثوابتها في الجزائر، فعملوا بطريقة غير

مباشرة على بعث روح التقدم والنهوض والوعي في ذهن الشعب، من أجل تغيير واقعه وإصلاحه، فكثيراً ما نجد كتاب المقامة ينصرفون للحديث عن قضايا نحو: الفقر، الظلم الاستعماري، غياب العدالة، الانحراف الخلفي، التعليم، الشعوذة، الفكر الطرقي المتحجر...

4.5. الاتجاه الشعبي:

يندرج ضمن هذا الاتجاه ما يعرف بـ: المقامة الشعبية، وهي التي تكتب بلغة متفاحصة، بمعنى أنها مزيج بين اللغة العربية الفصيحة والعامية لأسباب نوجزها فيما يلي²¹:

1- المحافظة على اللغة العربية، وضمان بقائها لغة أدب وفن وثقافة، خاصة في ظل الظروف الصعبة التي مرت بها خلال الاحتلال، فقد اضطهدوها كما اضطهد الثقافة العربية عامة، واعتبرها لغة أجنبية في عقر دارها، هذا إضافة إلى إغلاق المؤسسات والمدارس الحرة التي كانت تُدرّس فيها، وتغريم القائمين عليها ومعلميها لأدنى سبب ومحاربة المواطنين الذين يمولونها، إذ كان آنذاك فتح مدرسة عربية يعني فتح باب العذاب على القائمين عليها²².

2- توصيل ف المقامة وما يتضمنه من أفكار وآراء، إلى فئة الشعب ذات التعليم البسيط، باعتبار لغة المقامة الشعبية بسيطة قريبة في بعضها من لغة العامة، فهي سهلة الفهم عند تلك الفئة الغالبة على المجتمع، بسبب ظروف التعليم التي سبق الحديث عن صعوباتها.

3- إحداث اللذة الفنية باصطناع كتاب المقامة أسلوباً يجمع بين الفصحى والعامية، هذا إضافة إلى المتعة التي يضيفها على الكتابة، وكذا جعلها قريبة من الواقع الجزائري.

تعتبر المقامة الشعبية جزءاً من الأدب الشعبي، الذي ازدهر بشكل كبير خلال الاستعمار الفرنسي، خاصة في الفترة الممتدة ما بين النصف الثاني من القرن 19، إلى ما قبل عشرينيات القرن 20، أي ما بين عصر الضعف (بعد نفي الأمير عبد القادر)، وبداية الحركة الإصلاحية، ومن بين عوامل ازدهار الأدب الشعبي في هذه الفترة نذكر:

- 1- ضعف الأدب الرسمي، فجاء هذا الأدب ليمأ الفراغ الأدبي والثقافي.
- 2- اهتمام الكتاب والباحثين الأجانب بالأدب الشعبي، قصد توجيه الأنظار إلى العامية بدل العربية الفصحى لإضعافها أكثر والتقليل من انتشارها وسيطرتها على الأدب وعلى التعليم.
- 3- وجدت الجماهير المتوسطة التعليم ظالتها في التعبير عن مطامحها وآلامها بواسطة هذا الأدب فانصرفت إليه بقوة، مما أدى إلى كثرته في هذه الفترة مقابل تراجع الأدب الفصيح، الذي لم يجد الظروف مهيأة ومساعدة لازدهاره إلا مع عهد النهضة، المواكب لانتشار الحركة الإصلاحية، ولاشك طبعاً أن أي ازدهار للأدب الشعبي

يعني ازدهار المقامة الشعبية أيضا. نذكر كنموذج على مقامات هذا الاتجاه (المقامات العوالية في أخبار العلالية على اللغة المغربية) لمحمد بن علي والتي تكمن أهميتها كما يرى الركيبي في كونها إنتاجا أدبيا ظهر في أصعب مراحل اللغة العربية في الجزائر، وفي أسلوبها الجديد ولغتها المختلفة عما عهدناه في فن المقامة منذ القدم، وكذا في القضايا التي عالجتها والمشاكل التي عرضت لها وصورتها²³. ولاشك أن لهذه الأسباب دور في انتشار المقامة الشعبية، ولازدهارها بما أنها تمثل نوعا من هذا الأدب.

6. موضوعات المقامة في الجزائر:

تعرضت المقامة لكافة جوانب الحياة في المجتمع الجزائري، مصوّرة وضع الشعب اجتماعيا وسياسيا وفكريا، لذا يمكن اعتبارها سجلا صادقا عن ظروف العصر الذي تمثله، إذ تصور حياة الناس تصويرا دقيقا، وهذا هو حالها منذ القدم، "لذلك لا نعجب إذا رأينا...الدكتور مازن المبارك يؤلف كتابا موسوما بـ (مجتمع الهمداني من خلال مقاماته)، استطاع فيه أن يرصد الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية في المقامات"²⁴، ولاشك أنه في تصويرها مظاهر الكد والكسب والاحتيال لإشارة إلى حالة الفقر وتردي الوضع المادي للناس في تلك الفترة، وما هذا إلا جانب بسيط من أيام العرب في عهد الهمداني.

أمّا في الأدب الجزائري فقد نَحَتْ المقامة نفس النحو في تصوير الحياة العامة للشعب بكافة جوانبها مع اختلاف يعود إلى تغير الزمن و المكان وطبائع الناس وأخلاقهم وعاداتهم وظروف وسبل عيشهم.

1.6. الموضوعات الاجتماعية:

اهتمت المقامة في عشرينات وثلاثينات القرن العشرين بمضامين إصلاحية، يأتي الجانب الاجتماعي منها في المقدمة، وهو ما اتجه إليه (محمد الصالح خبشاش) في مجموعة مقاماته (زفرات القلوب)، التي سلط فيها الضوء على "الوضع الاجتماعي والأخلاقي، فهو كاتب إصلاحي قبل كل شيء تعنيه الحياة الاجتماعية، وهو مضطر أن يأخذ موقفا اتجاه من يكتب إليهم، وهو موقف النقد والإصلاح والتربية شأن المصلحين عامة"²⁵، هدفه تقويم المعوج وإصلاح الفاسد من الأخلاق والطبائع والعادات وكذا المعتقدات.

اتجه المقامي (محمد بن علي) هو الآخر إلى الموضوعات الاجتماعية في مجموعته (المقامات العوالية في أخبار العلالية على اللغة المغربية)، مركّزا على موضوع الفقر؛ إذ اعتبر الظاهرة التي أرقتة والخور الأساس الذي تدور حوله كل مقاماته. درس محمد بن علي بالمساجد والزوايا أين التقى بنماذج كثيرة من الطلبة الجزائريين الذين يدرسون القرآن والعربية، عاش معهم حياة الفقر والمعاناة فكتب مقاماته مصورا وضعهم المتدني والمزري، ويبدو أنه كابد كثيرا في سبيل دراسته، وعانى الجوع والفاقة، فخرج بهذه التجربة الصادقة التي تصور فئة الطلبة...إضافة إلى ذلك قام بتشريح المجتمع ذاكرة ما انتشر فيه من ظلم وتدهور للحياة الاجتماعية، بسبب سياسة الاستعمار، ولم تكن

فئة الطلبة إلا نموذجاً مصغراً للشعب، تمثل معاناة الطبقة المثقفة المضطهدة من طرف الاستعمار الذي ما انفك يحاول ضرب الثقافة القومية والإسلام²⁶.

2.6. الموضوعات الفكرية:

هي كل ما يرتبط بالتعليم واللغة العربية والفكر الطرقي والثقافة الأجنبية، والأدب والنقد والتربية... نذكر مقامة (عمر بن ابريهمات) "المقامة الأدبية" أنموذجاً لمثل هذا النوع من الموضوعات الثقافية، حيث تحدث فيها عن الصراع الفكري بين المستشرقين وعلماء المسلمين حول قضايا مختلفة؛ حضر مؤتمراً في باريس سنة 1897، تحدث في مقامته عن شخص مشارك أخذ يتهم في كلامه على العربية وعلى المسلمين مستنقفاً منهم ومن علومهم، صوّره الكاتب تصويراً كاريكاتورياً ساخراً، يقول: "ثم إنه صار يدندن كالسنور، ويجور كخوار الثور والناس يسمعون، وجلهم له يلعنون، فلما أتم سفهه والبزاق قد ملأ فمه..."²⁷، ولا شك أن هذا الوصف الساخر من المتكلم جاء استهزاء واستنكاراً وكذا انتقاصاً من شأنه ومن مستواه العلمي كما جاء دفاعاً عن العربية والإسلام.

طرح موضوعاً آخر وهو التأثير السلبي للثقافة الأجنبية على الشباب الجزائري وتقليدهم للأجانب في العادات والأخلاق وحتى الميولات... عبّر الكاتب عن يأسه من الذين درسوا في الجامعات الغربية، لأنهم أصبحوا يختلفون عنا في الطباع، كما أصبحوا ينظرون إلى العربي بعين النقص والازدراء، ثم انتقل إلى ذوي الثقافة المزوجة معبراً عن حزنه لحالهم يقول: "... وأن الشبيبة التي ذقت شيئاً زهيدا من العربية وطرفاً من الفرنسية، فغنها أصبحت كالغراب لما قلد الحمامة في مشيتها..."²⁸، لأنهم لم يفلحوا في أخذ العربية كاملة، ولم يتفقهوا في علومها ولا هم بلغوا في الفرنسية مبلغاً ذا بال ولم يحصلوا أياً من الاثنين، وفي مقابل الفئة الأولى والثانية يعلق آمالاً على ذوي الثقافة العربية.

أثار موضوع فن المسرح الجزائري اهتمام خبشاش، تحدث عنه وأشار إلى دوره الكبير في التوعية والتثقيف والترفيه، كما ناقش عدة أفكار تتعلق بهذا الفن إذ انتقد ساخراً اللغة التي يُقدّم بها، وتحدث عن قلة الجمهور وعن المزوجة بين العامية والفصحى في النصوص المسرحية²⁹.

3.6. الموضوعات السياسية:

كان هدف المقامة تشريح المجتمع وفضح سياسة فرنسا الظالمة للشعب الجزائري، فقد تحدث مثلاً (محمد بن علي) في مقامته الأولى (الصحراوية) عن الظلم والاضطهاد اللذين سُلّطوا على الشعب الجزائري بعد ثورة بوعمامة (1889-1904)، مصوراً كيف سيق الناس بالجملة وتحت التعنيف ليتم تسخيرهم لخدمة المعمرين،

ينطبق هذا على بطل المقامة وعل كثير ممن حكى عنهم في مقامته، يصف مثلا العذاب الذي تعرض له البطل قائلا: "وقد رق جلده واصفرّ لونه ثم إن لحمته هزت، ولحيته تكشردت..."³⁰.

ينقد بن علي في مقامته الثالثة روح القبيلة والتعصب وكذا التمييز، وهي ظواهر غذاها الاستعمار لتشتيت الشعب وضرب وحدته، هذا إضافة إلى بعض القضايا الأخرى التي تتضمن إشارة غير مباشرة للحياة السياسية المتدهورة في الجزائر، الهدف منها هو التوعية ونشر الفطنة والدعوة للنهوض، نحو ما نجده في المقامة الحادية عشر لمحمد بن علي، والتي يصف فيها مهرجان الفروسية وبعض التقاليد الجزائرية، فقد استعمل "تعبير الأمة العربية الذي ظهر مع اليقظة الحديثة... وكان يقصد به التفريق بين الأمة الفرنسية... وبين الشعب الجزائري العربي... وأغلب الظن أيضا أن الكاتب كان يهدف إلى إظهار الخلاف في التقاليد بين الجزائر وفرنسا... بغرض إثبات أن الجزائر لها كيائها الخاص وذاتيتها الخاصة، لا سيما وأن الفترة كانت فترة دعوة إلى الإدماج الكامل للشعب الجزائري، ومحاولة فرنسته، والقضاء على شخصيته"³¹، هدفه من خلال ذلك هو دعوة الشعب إلى رفض سياسة الإدماج الاستعمارية، وإثبات أن الجزائر ليست قطعة من فرنسا ولن تكون كذلك.

4.6. موضوعات دينية:

يستهن (محمد الصالح خبشاش) في مجموعة مقاماته "زفات القلوب" مختلف مظاهر المتاجرة بالدين، والتستر به للاحتيال على عقول الناس السذج لربح المال ولأغراض أخرى، "والحقيقة أن هذه الصورة لأدعياء الدين والمتاجرين به شاعت في الأدب الجزائري شعرا ونثرا في تلك الفترة، وهي ظاهرة جديرة بالدراسة، فما من شاعر أو كاتب إلا وأسهم فيها بصورة من الصور"³².

التفت خبشاش إلى الخلاف والنزاع الناتج بين رجال الدين والمتعلق بهلال رمضان، يوضح ذلك في إحدى مقاماته مصنفا الآراء حول هذا الموضوع إلى ثلاثة: يعتمد الأول على الرؤية، ويقول الثاني بتحديد يوم معين كل سنة بينما يذهب الرأي الثالث إلى اعتبار شهر سبتمبر هو شهر الصيام من كل سنة لما فيه من وفرة الخضر والسמיד واللبن³³.

7. الخصائص الفنية للمقامة:

1.7. الفكاهة: هو طابع تميزت به المقامة منذ الهمداني لذا اعتبر "أول أديب فكاهي في الأدب العربي استطاع تصوير أنواع الفكاهة، التي بلغت قمة النضج في مقاماته"³⁴، يعتمد فيه الكاتب التصوير الكاريكاتوري المضحك للشخصيات والمواقف ومختلف مظاهر المجتمع، يضفي هذا الطابع روحا مرحة فكاهة على النص، الهدف منها التسلية والإمتاع من جهة و النقد من جهة أخرى، مما يجعل هذا الفن أكثر قبولا عند المتلقي وأكثر شيوعا يقول شوقي ضيف متحدثا عن هذه الميزة في مقامات الحريري: "ولا نشك في أن هذا الأسلوب الفكاهي في المقامات

الحريرية، كان أحد الأسباب المهمة في ذيووعها، وإقبال الناس عليها في عصره وبعد عصره، لأنهم وجدوا فيها ما يسليهم ويرفه عنهم ويعينهم على احتمال أعباء الحياة، ويحط عنهم بعض أثقالها³⁵. وهو ما حصل مع الجزائريين خلال الاحتلال الفرنسي، إذ كانت الفكاهة تضيئي نوعا من الحيوية والضحك ترفه بهما عن نفوسهم وتنسيهم فضاة الاحتلال والمعاناة التي يعيشونها في ظله.

2.7. العناية بالأسلوب: اهتم كتاب المقامة منذ القدم بتأنيق أساليبهم، وترصيع نصوصهم بمختلف جواهر البديع وذُرر البيان، لهذا يقول شوقي ضيف أن المقامة حديث بليغ، أساليبه أنيقة ممتازة³⁶. فلغة هذا الفن تُطلب فيها الجمالية لذاتها بالدرجة الأولى، إذ نجد الكتاب يتهافون من أجل تحصيل فنون القول والتبحر في أساليب اللغة وأبنيته وامتداداتها واستعمالاتها، وأكد أن ذلك لا يأتي إلا بسعة الثقافة والاجتهاد، وهذا ما يذهب إليه شوقي ضيف في حديثه عن الهمداني إذ يقول إنه: "كان صائغا ماهرا يحسن ضم جواهرها بعضها إلى بعض، وتكوين عقود منها تأخذ بالأسماع والأبصار، ولا ريب في أن ذلك موهبة يختص بها أو قل إنه فن لم يرق إليه إلا بعد ثقافة واسعة باللغة، وتدريب شاق على صناعة أساليبها"³⁷، لذلك يعتبر أن أهمية المقامة كفن أدبي لا تكمن في موضوعها أو فيما يحدث للبطل بل في الأسلوب الذي تُعرض به الحادثة، ومن هنا يُغلب اللفظ على المعنى³⁸. على ذلك النهج تقريبا سار كتاب المقامة في الجزائر معتمدين السجع والموازنة بين العبارات وتقصير السجعات من جهة، كما اختاروا من الصور ومختلف أساليب البيان ما يضيف لمسة جمالية فنية على نصوصهم من جهة أخرى.

3.7. الرمز والإيحاء: لجأ الكتاب إلى أسلوب الرمز والإيحاء للكلام بطريقة غير مباشرة، إذ استترت أفكارهم خلف هذه التقنية خوفا من الاستعمار الفرنسي عند طرق المواضيع التي تهدد مصالحه ووجوده في الجزائر، أو التي يهدف أصحابها إلى توعية الشعب الجزائري وتحريضه على النهوض، كما اعتمد هذا الأسلوب خوفا من رجال الطريقة المدعّمين من طرف فرنسا، هذا عند طرح موضوعات كالسخرية من الخرافات والأكاذيب التي كانوا يروجون لها، ورفض مظاهر السحر والشعوذة.

نجد هذا الأسلوب أيضا في المقامة الصوفية، لأنها تستدعي -بحكم موضوعها- الغموض والإيحاء والتلميح لا التصريح، إضافة إلى اعتماد مصطلحات صوفية يغلب عليها الرمز والغموض، وتعقيد الموضوع في حد ذاته وغموضه (الطبيعة وما بعدها، الوجود، الخلق، الحقيقة الإلهية، القدرة الإلهية، العبادة...).

4.7. الشواهد: يورد كاتب المقامة أحيانا شواهد من الشعر أو من القرآن الكريم، وقد تكون جكما أو أمثالا أو أقوالا مأثورة يعتمدها أحيانا للتأكيد والإثبات أو للوعظ والاعتبار... نجد هذه الخاصية مثلا عند الأمير عبد القادر في كتاب المواقف، إذ يعتمد فيه الشعر. كما نجد أيضا عند محمد بن علي. ولا بد من الإشارة في هذا الموضوع إلى أن التمثيل بالشعر موجود بكثرة في مقامات الهمداني، فهو نادرا ما يتعد عن الاستشهاد به³⁹.

5.7. التفكك: يتميز بناء المقامة بخاصية التفكك، لأنها ليست قصة يشترط فيها تلاحم الأحداث وتسلسلها، إذ يمهّد أحدها للآخر، فالمقامة هي عكس ذلك لا تتسلسل أحداثها أو ترتبط، كما يغيب التفاعل والتكامل بين الشخصية والحدث، ولا يوجد رابط أو علاقة بين الحوار والشخصيات فهي لا تتعدى أن تكون لافظة له، وهو لا يعبر عنها ولا عن دواخلها أو أفكارها، وهذا ما ميز المقامة في الجزائر.

6.7. الطابع القصصي: تتميز المقامة ببعض ملامح القصة والتي يمكن إيجازها فيما يلي:

- الأركان الثلاثة للمقامة: تقوم المقامة على ثلاثة أركان أساسية، هي كما حددها عباس هاني الجراح: البطل - الراوي - الحدث⁴⁰.

- الراوي: هو الذي يقوم بعملية الحكى، يصف ويسرد الأحداث ويصور البطل وينقل حوارات الشخصيات... بمعنى أن حديث المقامة كله يُسند إليه ليوهم بحقيقة القصة، يصل في نهايتها إلى كشف البطل.

- البطل: هو الشخصية الرئيسية في المقامة، تدور حوله الأحداث. قد يتكرر الراوي والبطل بنفس الأسماء في جميع مقامات الكاتب نفسه، وهو ما نجده عند محمد بن علي الذي اختار لراوي مقاماته جميعها اسم (ابن العربي) واختار لبطله اسم (الحبيب بن عيسى) غير أنه يظهر في كل مقامة بصورة مختلفة وشخصية مغايرة، من صفات البطل: المكر، الخداع، الدهاء، الحيلة، المرح، الدعابة، يبحث عن رزقه بالكدية، يقول عباس هاني الجراح بأنه: "يقوم بكل الأعمال التي تتطلب الحيلة والخبث، من أجل الحصول على ما يريده وهو على ذلك يقف على طرفي نقيض من الراوي، ويبلغ دهاء البطل أنه يتخفى بعدة طرق حتى يصعب على الراوي معرفته، إلا في نهاية المقامة"⁴¹، وكذلك كان بطل مقامات محمد بن علي.

- الحدث: يقصد به موضوع المقامة ومضمونها وهو القصة، من البداية إلى النهاية، يقول عباس هاني الجراح: "وهذا الحدث ما هو إلا القصة التي صاغها مؤلفو المقامات صياغة فنية متكاملة درامياً"⁴². تنفرد كل مقامة للكاتب نفسه عن المقامة الأخرى، من حيث المضمون أو الحدث، ويظهر البطل في كل مرة بصورة مختلفة عن الصورة التي ظهر بها في باقي المقامات. غالبا ما يُبنى الحدث على الكدية، وهي مظهر من مظاهر العجز والكسل، أو الفقر وعدم التكافل الاجتماعي بين الناس⁴³، إذ يحتال البطل المكدي على السذج والبسطاء، ويخلب الجماهير بكلامه العذب، ليأخذ أموالهم وهو دائم البحث عن فريسة سهلة المنال، وصيد سهل ينخدع بحيله وحديثه المنمق.

إضافة إلى الأركان السابقة والتي تعتبر من ملامح الفن القصصي نجد خصائص أخرى في المقامة تقرّبها من فن القصة نحو: الوصف، الحوار، القصر، الشخصيات، السرد والزمان والمكان. ولا بد من الإشارة إلى أن المقامة لا تتوفر على كل ملامح أو مبادئ القصة وإلاّ لكانت قصة، إذ يبقى الاختلاف قائما بينهما ويبقى لكل فن حدوده الخاصة.

8. خاتمة:

نصل من خلال هذا الطّرح إلى التّنتائج الآتية:

- 1- فن المقامة من الفنون الثريّة الأدبيّة القديمة التي ازدهرت في الأدب الجزائري خلال العصر الحديث.
- 2- عرفت المقامة في الأدب الجزائري الحديث عدّة اتجاهات تختلف باختلاف مذاهب وميولات وطبوع وثقافات كتّابها إذ تتراوح بين المقامة الصوفيّة والشعبيّة والإصلاحيّة والأدبيّة.
- 3- تعدّدت موضوعات المقامة في الفترة الحديثة، إذ ارتبطت ارتباطا مباشرا بالوضع العام الذي عاشه الشعب الجزائري آنذاك والمتمثل في الاحتلال الفرنسي وما ترتب عنه من معاناة وقهر وظلم واستبداد.
- 4- أخذ كتاب المقامة على عاتقهم محاولة توعية الشعب الجزائري وبذلوا جهدا لمحاربة الأفكار الطرقية وكل ما يشبط عزيمة الشعب الجزائري، ويقف أمام آماله وطموحاته وأهدافه. كما وضعوا نصب أعينهم ضرورة إصلاح حال الشعب اجتماعيا ودينيا وخلقيا.
- 5- ساهمت المقامة الشعبية في ازدهار الأدب الشعبي الجزائري في وقت ضُربت فيه معاقل اللغة العربيّة.
- 6- اتسمت المقامة في الأدب الجزائري الحديث بنفس ما اتسمت به المقامة فنيا في الأدب العربي، مع اختلاف بسيط يعود إلى اختلاف الظروف والوضع العام.

9. الهوامش:

- ¹ - ابن منظور، لسان العرب، مادة (قوم)، باب القاف، مج5، ص3781.
- ² - عباس هاني الجراح، المقامات العربية وآثارها في الأدب العالمي، الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2014، ص: 11.
- ³ - شوقي ضيف، المقامة، فنون الأدب العربي الفن القصصي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، 1973، ص: 08.
- ⁴ - يوسف نور عوض، فن المقامات بين المشرق والمغرب، دار القلم، بيروت، لبنان، 1979، ص: 08.
- ⁵ - ينظر شوقي ضيف، المقامة، ص: 17.
- ⁶ - المصدر نفسه، ص: 18.
- ⁷ - ينظر نفسه، ص: 20-21.
- ⁸ - جامعة القدس المفتوحة، فنون النثر العربي القديم 5240، مكتبة فلسطين، للكتب المصورة، 2007، ص: 273، <http://palstinebooks.blogspot.com>
- ⁹ - ينظر المصدر نفسه، ص: 274.
- ¹⁰ - نقلا عن عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث 1830-1974، الدار العربية للكتاب، دط، 1983، ص: 76.
- ¹¹ - ينظر المصدر نفسه، ص: 78.
- ¹² - ينظر نفسه، ص: 80.
- ¹³ - ينظر نفسه، ص: 88.
- ¹⁴ - ينظر جامعة القدس المفتوحة، فنون النثر العربي القديم، ص: 270.
- ¹⁵ - عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ص: 77.
- ¹⁶ - ينظر جامعة القدس المفتوحة، فنون النثر العربي القديم، ص: 270.
- ¹⁷ - ينظر المصدر نفسه، ص: 278، وينظر: شوقي ضيف، المقامة، ص: 27.
- ¹⁸ - عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ص: 79.
- ¹⁹ - ينظر المصدر نفسه، ص: 79-80.
- ²⁰ - نفسه، ص: 80.
- ²¹ - نفسه، ص: 90-91.
- ²² - ينظر عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص: 80-81.
- ²³ - ينظر: عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ص: 88-89.
- ²⁴ - جامعة القدس العربية، فنون النثر العربي القديم، ص: 303.
- ²⁵ - عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ص: 81.
- ²⁶ - المصدر نفسه، ص: 89-92-93.
- ²⁷ - نقلا عن نفسه، ص: 79.
- ²⁸ - ينظر نفسه، ص: 83.
- ²⁹ - ينظر نفسه، ص: 85.
- ³⁰ - نفسه، ص: 97.
- ³¹ - نفسه، ص: 104-105.
- ³² - نفسه، ص: 84.
- ³³ - ينظر نفسه، ص: 85.

- ³⁴ - باسم ناظم سليمان ناصر، سيكولوجية الفكاهة في مقامات بديع الزمان الهمذاني، المكتب الجامعي الحديث، جامعة كركوك، العراق، 2012، ص: 135.
- ³⁵ - شوقي ضيف، المقامة، ص: 74.
- ³⁶ - ينظر المصدر نفسه، ص: 09.
- ³⁷ - نفسه، ص: 41.
- ³⁸ - ينظر نفسه، ص: 09.
- ³⁹ - ينظر نفسه، ص: 41.
- ⁴⁰ - ينظر عباس هاني الجراح، المقامات العربية، ص: 15 إلى 17.
- ⁴¹ - المرجع نفسه، ص: 15.
- ⁴² - نفسه، ص: 17.
- ⁴³ - ينظر جامعة القدس العربية، فنون النثر العربي القديم، ص: 305.

10. قائمة المصادر و المراجع:

- 1- ابن منظور، لسان العرب، مادة (قوم)، باب القاف، مج5.
- 2 - عباس هاني الجراح، المقامات العربية وآثارها في الأدب العالمي، الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2014.
- 3 - شوقي ضيف، المقامة، فنون الأدب العربي الفن القصصي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، 1973.
- 4- يوسف نور عوض، فن المقامات بين المشرق والمغرب، دار القلم، بيروت، لبنان، 1979.
- 5- جامعة القدس المفتوحة، فنون النثر العربي القديم 5240 ، مكتبة فلسطين، للكتب المصورة، 2007، ص: 273، <http://palstinebooks.blogspot.com>
- 6- عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث 1830-1974، الدار العربية للكتاب، دط، 1983.
- 7 - عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.
- 8 - باسم ناظم سليمان ناصر، سيكولوجية الفكاهة في مقامات بديع الزمان الهمذاني، المكتب الجامعي الحديث، جامعة كركوك، العراق، 2012.